من الأدب الأندلسي :

٣ـ التوابع والزوابع

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

رأينا فى المقال السابق كيف راح ابن شهيد يتهكم بالأدباء الذين غمطوه فضله حقداً عليه ، وحطوا من قدره حسداً له ، وقد أبدى ابن شهيد — وهو بسبيل الكلام على أدب هؤلاء الأدباء — كثيراً من الآراء فى النقد والبيان هى أهم وأقوى ما اشتملت عليه التوابع والزوابع ، بل هى أهم وأقوى ما لابن شهيد من الآثار الأدبية ، حتى من شعره على عذوبته ، ومن نثره على ملاحته ، فنحن بلا خلاف نعتقده الناقد الأول بين النقاد الأقدمين فى الأدب العربى ، ولكنا بلا خلاف لا نعتبره الشاعر الأول ، ولا الكاتب الأول . ولما كانت هذه الآراء قد جاءت متناثرة فى الرسالة ، رأينا من الخير أن نجمع شتاتها وأن ننظمها فى سمط واحد ، حتى تتبين منها مذهب الرجل فى النقد واضحاً جلياً . وإذا كانت هذه الآراء قد شابها شىء من حقد ابن شهيد وضغنه على معاصريه ، إلا أنها آراء صحيحة ثابتة ، تزداد على طول الزمن صحة وثبوتاً . وهذه الآراء فى مجموعها تنقسم الى شقين ، شق يرجع إلى شخصية الأديب ، وآخر يختص بالآثار الأدبية ، وإنما نعنى بشخصية الأديب مواهبه العقلية ، واستعداده الفطرى ، وسعة معارفه ، وهذه ناحية قد أبدع فى بحثها ابن شهيد أيما ابداع ، وله فيها آراء قوية لم يسبقه اليها ناقد فيما نعلم ؛ فقد حاول أن يستخدم العلم والفلسفة فى دراسة الشخصيات وتفهم الملكات الأدبية فى الشخص ، ومقدار استعداده وطبعه ، والطبع — عند ابن شهيد — هو أهم ركن فى شخصية الأديب ، بل هو المرجع الذى يرجع اليه سر البلاغة . فمن كلامه : « إن البيان هبة إلهية لا علاقة لها بالنحو والصرف ، واللغة والغريب ، وإن الاختلاف الى الأساتيذ ، والتوفر على الدرس والبحث فى بطون الكتب ، كل هذا لا يجدى ولا ينفع إذا لم تكن ثمة فطرة سمحة ، ونفس مجلوة ، وطبيعة مواتية . وقد روى فى ذلك أنه التقى فى وادى الجن بشيطان أنف اللقة (وهو على علاته زى علم ، وزنبيل فهم ، وكنف رواية) فأراد ابن شهيد أن يناوشه فى اللغة والنحو ، وطلب منه أن يطارحه كتاب الخليل وشرح ابن درستويه ، فقال الشيطان : أنا أبو البيان ، وقد علمنيه المؤدبون ، قال ابن شهيد (ليس هو من شأنهم ، وإنما هو من تعليم الله حيث يقول : الرحمن علم القرآن . خلق الانسان علمه البيان) وانما أنت كمثن وسط ، لا يحسن فيطرب ، ولا يسىء فيلحى ، وليس من شعر يفسر ، ولا أرض تكسر ، حتى يكون نفسك من نفسك ، وقليبك من قلبك ، وحتى تتناول الوضيع فترفعه ، والرفيع فتضعه ، والقبيح فتحسنه »

وقد بحث ابن شهيد فى مقدار الطبع وتركيبه فى النفوس ، وأثره فى صور الكلام وتفويق المعانى ، وذهب فى البحث مذهباً فلسفياً فقال : « مقدار طبع الانسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه مستولية على جسمه من أصل تركيبه ، كان مطبوعا روحانياً يطلع صور الكلام والمعانى فى أجل هيآتها ، وأروق لباساتها ، ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه ، كان ما يطلع من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى فى التمام والكمال » ومن رأى ابن شهيد أن للأعضاء الظاهرة تأثيراً على الملكات الباطنة ، فتجده يقول فى جماعة من أدباء قرطبة « إنهم يدركون بالطبيعة ، ويقصرون بالآلة ، وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة الروحانية والخادمة لآلات الفهم ، والباعثة لرقيق الدم فى الشريان الى القلب ، وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعى ما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه ، ونتوء القمحدوة ، والتواء الشدق ، وخزر العين ، وغلظ الأنف ، وانزواء الأرنبة »

وهذا المذهب قريب الشبه من مذهب النقاد الفرنسيين فى القرن التاسع عشر الذين استخدموا القوانين العلمية فى النقد الأدبى ودراسة الشخصيات ، وهو أشد قرباً من مذهب الناقد المشهور « سانت بوف » . فقد كان هذا الباحث يعمل على تطبيق علم التشريح ، وعلمى — الفسيولوجيا والبسكولوجيا — على تراجم الشعراء والكتاب ، وكان يتعمق فى بحث النفسيات ، ويهتم بالعرض كما يهتم بالجوهر ، ويبحث عن شكل صاحب الترجمة الظاهر ، من الطول أو القصر ، والنحول أو البدانة ، والقبح أو الجمال ، ليستطيع أن يدرك مقدار استعداده ومواهبه ، وما عنده من صفاء الروح وقوة الطبع . ولكن ابن شهيد كما ترى

له فضل السبق الى تقرير هذه الآراء ، ولقد أصاب ابن شهيد فى كل ما قرره ، ووفق فى شرحه وتعليله ، فلا جرم أن الطبع هو سر البلاغة ، ومبعث الصفاء وحسن الرونق فى صور الكلام ، وأن علوم اللغة والنحو والتصريف لا تجدى مع القلوب الغليظة ، ولا تخدم فى الفطن الحمئة ، وإنما يسمو الكلام ويرتفع بقدر سمو طبع قائله ، وشرف نفسه وصفاء روحه ؛ وليس معنى هذا أن ابن شهيد يطلق الكلام فى الحط من قيمة علوم اللغة والغريب ، أو ينكر فائدتها فى تكوين شخصية الأديب ، بل إنه يقرّ بفضلها ويعترف بفائدتها كعامل مساعد على نمو الطبع وتقوية الروح ، إلا أنه يرى أن استعمال الغريب واستخدام النحو مما يحتاج الى الدقة والبراعة ، فليس من الفصاحة أن تخرج العبارة فى أى وضع نحوى ، أو تجرى غريب اللغة على أى وجه كان ، ولكن الفصاحة أن تختار أملح النحو وأفصح الغريب ، بمعنى أن تكون العبارة على الوضع النحوى الذى يتفق والمعنى البيانى ، وبمعنى أن تكون الكلمات الغريبة فى وضعها اللائق ، ومكانها المناسب ، فان بين الألفاظ قرابة يجب أن تراعى فى الوضع . وقد جلا ابن شهيد هذه النظرية الدقيقة فى حكاية رواها عما كان يقع بينه وبين تلاميذه فقال : « جلس إلىّ يوماً يوسف الأسرائيلى ، وكان أفهم تلميذ مرّ بى وأنا أوصى رجلاً عزيزاً علىّ من أهل قرطبة ، وأقول له إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو فى الكلام ، فاذا جاور النسيبُ النسيبَ ، ومازج القريبُ القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر . أفهمت ؟ قال : أى والله ، قلت وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمست ، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر . أفهمت ؟ قال : نعم ، قلت وكما تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه ، قال : أجل ، قلت : أتفهم شيئاً من عيون كلام القائل :

لعمرك أنى يوم بانوا فلم أمت ... خفاتا على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ... ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها ... لناظرها غصن يراح مطير

فقال : أى والله ، وقعت « خفاتا » موقعاً لذيذاً ، ووضعت « رميت » و « متن الطريق » موضعاً مليحاً ، وسرى « غصن يراح مطير » مسرى لطيفاً ، فقلت له أرجو أنك تنسمت شيئاً من نسيم الفهم ، فاغد علىّ بشىء تصنعه . وكان ذلك اليهودى ساكتاً يبى ما أقول ، فغدا ذلك القرطبى فأنشدنى :

حلفت برب مكة والجبال ... لقد وزنت لروسى بالجبال

فى أبيات تشبهه ، وجاء اليهودى فأنشدنى :

أيم ركبانهم منعجا ... وقد ضمنوا قلبك الهودجا

واستمر الى آخر القصيدة فأتى بكل حسن . فقال لى ذلك القرطبى شعر اليهودى أحسن من شعرى ، قلت : ولا بأس بفهمك إذا عرفت هذا ، ولم يزل يتدرب باختلافه الى حتى ندى تربه ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عبقه . . »

والظاهر أن مسألة استعمال الغريب واختيار الألفاظ كانت من المسائل التى شغلت أذهان النقاد فى عصر ابن شهيد وقبله ، فقد عالج هذه الناحية أبو هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين ، وكان من رأيه « أن تخيرّ الألفاظ ، وإبدال بعضها من بعض من أحسن نعوت الكلام وأزين صفاته ، فان أمكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كان أحسن له ، وأدعى للقلوب إليه . . . فينبغى أن تجعل كلامك مشتبهاً أوله بآخره ، ومطابقا هاديه[1] لعجزه ، ولا تتخالف أطرافه ، ولا تتنافر أطراره ، فتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها ، ومقرونة بلفقها ، فان تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام » والظاهر أن العسكرى قد تابع غيره فى هذا الكلام ، فقد روى عن أبى أحمد . . أنه قال : « كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب ، نختلف الى مدرك نتعلم منه الشعر . . فقال لنا إذا وضعتم الكلمة بلفقها كنتم شعراء » وقد يطول بنا القول ، لو أخذنا نتقصى أقوال النقاد فى هذه الناحية ، وإنما آثرنا كلام العسكرى لأنه فى مجموعه قريب الشبه بكلام ابن شهيد ، فقد قال بتآخى الكلمات ، وتخيرّ الألفاظ ، ومراعاة الحروف ، وهذا هو معنى قول ابن شهيد : « إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو فى الكلام ، فاذا جاور النسيبُ النسيبَ ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة » إلا أن كلام ابن شهيد أدق وأعم ، كما إنه يمتاز بالقول فى اختيار الوضع النحوى للكلام مما سماه ملاحة النحو ، وهذا مالا يسبقه اليه أحد من النقاد ، فهذا لو درج الأدباء فى أساليبهم من هذه الجهة على النهج الذى أوضحه ابن

(١) الهادى الشق